مع شوقي الخالد :

مسرحية مصرع كليوباترا

تتمة ما نشر في العدد الماضي

للأستاذ حسين كامل عزمي

ثم يضرب شوقي ضربته النفسية الرائعة ، المؤثرة ، البليغة . في إسداله ستائر الموت على الجو الأخير ، بنشيد الموت .. حتى إذا ما انتهى نشيد الموت ، وضمن الشاعر تهيئة الجو النفسي للجمهور ، يدخل القائد بالمعاهدة المهينة . فيضمن الشاعر بذلك سخط الجمهور على الدخيل ؛ ثم يجري على لسان القائد تلميحا ، كالسهم الموجع ، يمس الأنثى السكينة « كما صورها شوقي » فيضمن أيضا ثورة الجمهور ، متضمنة عطفا انفعاليا غير واع على البطلة ... ثم يأتي تصوير الانتحار .. الملكة متخاذلة ، ضعيفة ، مسكينة ، تصانع الحراس ، وتتاقى تجريح القائد ، وتتعاطف مع الخدم ، و .. وتذوى في نشيد الموت ...

ثم تفاجئ زنبقة في الآنية .. ولكم أحسن شوقي تصوير كليوباترا الأنثى في هذا الموقف .. فها هي ذي منحنية على زنبقة في أصيص ، تتعاطف مع الطبيعة الصامتة شاعرة ، متصوفة — ما أبعدها عن كليوباترا التاريخ الخاطئة — اسمعها تقول :

زنبقة في الآنيه ضحية الأنانيه
جئت عليها غربة الـ أسر الأكف الجانيه
وبدلت من سعة الربوة ضيق الباطيه
يسقونها من جرة بعد العيون الجاريه
يا جارتا شأنك لا يشبه إلا شانيه
لم يبق من ملكي العريض غير دار خاويه
وكانتا ذابلة عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغنا من حياة فانيه

وبعد .. فكليوباترا أم لا تقوى على مواجهة طفليها وحدها فتستند إلى شرميون قائلة :

لما انثنى في حلة من سندس قالت غصون البان: ما أبقى لنا؟
وبثغره وبخده وعذاره معنى العذيب وبارق والمنحنى
أقسى على من الحديد فؤاده ومن الحرير تراه خدا ليننا
يا قلبه القاسي ورقة خصره هلا نقلت إلى هنا من ها هنا
شبهته بالبدر قال ظلمتني يا عاشق بالله ظلما بيننا
من أين للبدر الأتم ذوائبا أو مقلة أو ورد خد يجتنى
البدر ينقص والكمال لطلعتي فلذاك قد أصبحت منه أحسنا
لو أن رقة خصره في قلبه ما كان جار على المحب ولا جنى

هذا نوع من أنواع أشعاره في الغزل وهي كثيرة لا يحصى لها عد ، أقل ما يقال فيها أنها وإن كانت قديمة لا تتمشى مع رغبات أبناء العصر الحاضر ، إلا أنها في ثناياها حشاشة شاعر تكاد تذوب رقة وتقطر حلاوة وفنا

يتبع دمشق **حسن كنعان**

الموسم .. وكانت سنتئذ تعد من السنين المخصبة المرعة لديهم . ولهذا لا يزال الحلبيون حتى الآن يفزعون إلى الدعاء كلما ضنت عليهم السحب بالأمطار ، ينشدون هذه الموشحات إذ يعتقدون فيها الخير والبركة ... ولكن الخير والبركة بعيدتان عن أهل هذا العصر الذي طغى عليهم فيه الكفر والإلحاد ... فلم تعد تفيدهم في ضن مواسمهم وشحها لا توسلات إسق العطاش ولا بل الفراش ... فديوان شاعرنا قد حوى الكثير من أمثال هذه الموشحات التي يضيق المقام عن سردها. وأما في الأشعار الغزلية فلقد فاضت قريحة الشاعر المطبوع بالشيء الكثير ، ومن أغرب ما رأيته فيها قوله من قصيدة له مشهورة مطلعها

هزوا القدود فأخجلوا سمر القنا وتقلدوا عوض السيوف الأعينا
وتبادروا للعاشقين فكلهم طلب النجاة لنفسه إلا أنا
لا خير في جفن إذا لم يكتحل أرقا ولا جسد تجافاه الضنا

أدخلي بي يا شرميون على طفـــلي أودعهم الوداع الرهيبا
فسامح إذا تحجب صدري وجدوا صدرك الحفي الرحيبا

ثم تبارك — خاطئة التاريخ — الحب الطاهر بكلام كـكلام المتصوفين ، تقول :

ولدى اهجروا القصور فإني قد وجدت النعيم فيها غريبا

ثم تمنحها ضيعة للحب ..

وشوق بعد كل هذا حريص على أن يترك ساحة كليوباترا نقية .. فهو يبارك هذا الحب أيضا ، ولا يجنى على هيلانة فتقع تبعة موتها على كليوباترا ، فيخترع معجزة « حقة النجاة » ضاربا بالواقعية عرض الحائط ، فى سبيل الوصول إلى الغرض الأول والأخير .. ثم لا يترك كليوباترا إلى راكمة أمام تمثال إزيس تائبة ، مستغفرة ، مسترحمة ، ملقية تبعة خطاياها على الحياة .. فى فلسفة واهية الأساس ، وإن كانت متماسكة ؛ بعد أن هيأ لها شوق ذلك الجو الذى أسلفنا تحليله ..

ولحظة الانتحار — وإن مرقت كالبرق — إلا أنها أضاءت بالأمل الذى يريد أن يتشبث بالشباب ، فيمنعه شئ فى النفس .. كما تجلى ذلك فى قولها :

الملـكة : عجل فديتك

أنطونيو : لا .. لا بد من ثمن

الملـكة : كرائم المال

أنطونيو : ما للمال مقدار

* * *

الملـكة : إلى الأقاصى ؟

أنوبيس : لا إلى المحراب

الملـكة : رأيكما فى الملك والذهاب

* * *

زينون : أتعلم يا غلام على عشقا

حابى : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون : ومن أنبأك

حابى : أنت

زينون : وكيف ؟

حابى : تهذى .. فتفضحك الوساوس والهذاء

* * *

الملـكة : ماذا وراء الجندى ؟

الحارس : رسالة من عبد هل تأذنين ؟

الملـكة : أد

د — شعر المسرحية :

فى هذه المسرحية قصائد خالدات يسجلها تاريخ الأدب للأجيال المتعاقبة باحترام صادق عميق ، وهو مؤمن بشاعرية شوق .. فلو سأل سائل ما هو الشعر لقرأنا له : « يا طيب وادى العدم » ، ولقرأنا له « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » ، ولقرأنا له : « زنبقة فى الآنية » ، ولقرأنا . « نام مركو ولم أنم » .. ثم سكتنا .. وهو — أى السائل — لا بد شاعر بما سأل عنه ..

فهذا الشعر ليس فى حاجة إلى الإقناع بأنه شعر ؛ إنه مناجاة عاطفية ذاتية إنسانية ، مناجاة آتية من بعيد — كالأمواج المنسابة فى ريث — تأخذ طريقها إلى نفسك فى رفق ، وصمت وعمق .. فتصغى إليها بكل حواسك ، وكأنك تصغى إلى حبيب وأنت نشوان غائب فيه ..

أراد شوق أن يناجينا مناجاة العدم ، فأتى بنشيد الموت .. وقد تمثله حقا ، فاستطاع أن يمثله لنا ، وأن يجذبنا إليه ، وأن يجعلنا معه ..

ذلك الموت الحالم المريح الذى قدمه لزمعة الانتحار كليوباترا .. ذلك الوادى الطيب ، حيث الهروب مما لا نطيق ، حيث العزلة ، حيث تلاقى كليوباترا حبيبها ، وتكون له خالصة ويكون لها كذلك ..

ما أجمل هذا الوادى ، وما أحبه للنفس اليائسة الراغبة فى الانتحار .. إن وادى شوق هذا هو وادى العدم حقا .. إنه واد « لم تمش فيه قدم » مجدب خال . إنه الموت ... وحلق مع شوق وارتفع بخيالك واسبح مع الشراع الفضى الذى يسرى « كالحلم فى الغمض » ، وهو ثابت متحرك ؛ لأنه حلم « يجرى

ولا يجرى » ... واسمع لأحزان الموت المريح ، لهذا النداء الحزين :

يا موت مل بالشراع واحمل جريح الحياة

وانظر مع شوق لهذا الفلك والمحه ، إلمحه من بعيد ، وهو يخترق اليم (تحسبه نجما ...) ، وتأمل سلبية هذا الزورق ، فهو ليس به ملاح ، وهو :

من نفسه يجرى لم يجره مجداف

وهو يجرى ولا يجرى ... إنها أمور محيرة ... إنه الموت ، لا بلاغة يجول فيها العلماء ... وهنا يخجل التحليل والتشريح ... إنها أنفاس شاعر قد بثها فى كل شطر ... أما النغم فى هذه القصائد فهو يبدو في اللفظ والوزن والتركيب ، وفى أبعد من هذا فى نفس الشاعر التى امتلأت بما يقول

أما هذا النغم فهو همس صادق حزين ، مستريح يأوى لحزنه ... حسبك أن تنصت لهذا الشعر ، فتحسب أنه أغان تهمس بها نفسك أنت

وهى كلمة قصيرة عن هذا الشعر الرفيع فى هذه المسرحية ... وإذا بحثنا عن عثرات فنية فى شعر شوقى فى هذه المسرحية فلن نجد ما يهبط بشاعريته ...

فما يقوله دائما له مدلول وليس فيه فضول ...

فهو بتهالك على الشعر لينظم ؛ بل عنده ما يقوله ، بل ما يجب أن يقوله ...

وإذا أردنا أن نلتمس شعراً ضعيفا فلنلتمسه فى أبيات متبادلة بين أشخاص المسرحية ... وذلك لطبيعة الشعر المسرحي ... وللشاعر عذر فى ذلك إلى حد ما ، فهو لا يستطيع أن ينقل إلينا الكلام العادى الذى يجرى على ألسنتنا ، ولا يستطيع أن يمثل لنا حياتنا اليومية إلا بمثل هذا النظام ...

والذى نلاحظه بجلاء أن شوقيا أسير لجلجلة الشعر العربي القديم ، وذلك واضح جدا فى كثير من قصائده الطوال فى هذه المسرحية ، مثل :

« وداعا كليوباترا إلى يوم نلتقى .. » ، « اليوم أقصر باطلى وضلال .. » ، « هلمى الآن منقذتى هلمى .. » ، « أمانا إله الحرب ما أنت صانع . . » ، « روما حنانك واغفرى لفتاك . . »

فى كل هذه القصائد يحمل شوقى روح الشعر العربى القديم ولا يمنع هذا من أنه يصف الحال ويعبر أحسن التعبير . . وتتجلى هذه الروح حينما ينفرد شوقى بنفسه ويطلق لها العنان على ألسنة أبطاله ، وكأنه يثأر من قيود الحوار

وخلاصة رأينا فى شوقى هى أننا — كما يقول أستاذنا الجليل الزيات بك « قد علمناه بالدرس ، وعرفناه بالصحبة ، فما انخذل يوما فى تحليقه وإسفافه عن مواقف العبقرية . . ولئن كان فى شعر شبابه مأسور الفكر ، محصور الخيال ، محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأى القصر ، ولا يصور إلا بألوان البيئة ؛ لقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذهولا منه عن وجوده ، وقديما كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء طاهة الشعر وآفة العبقرية ؛ فلما أعتقته الحرب من رق الوظيفة ، وأطلقته إنجلترا بالنفى إلى الأندلس ، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم الصالح . . فحلق بخياله فى كل جو ، وسطع بعقله فى كل أفق ، وشدا بالإسلام والعروبة شدوا ردده كل لسان واهتز له كل قلب . . ثم زاد فى القيثارة العربية الأوتار الناقصة . . فأضاف الشعر القصصى ، والشعر التمثيلى ، إلى شعرنا الغنائى ، فكان بذلك وحده : الشاعر الكامل »(١)

(السويس) حسين فاضل عزمى

(١) فى أصول الأدب للزيات بك

وحى الرسالة

فصول في الأدب والسياسة والنقد والاجتماع والقصص

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك